الفصل الرابع

أصول عامة في دعوة الأنبياء

- أولاً : الدعـوة إلى توحيـد الله.
- ثانياً : الدعوة إلى عبادة الله وحـده.
- ثالثاً : الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.
- رابعاً : الدعوة إلى القيام بالقسط.
- خامساً : ارتباط الإيمان بالعمل الصالح.
- سادساً: الجمع بين التبشير والإنذار.
- سابعاً : تحـديـد قيمـة الأشـياء.
- ثامناً: عدم ابتغاء الأجر أو سؤاله.

أولاً : الدعوة إلى توحيد الله

أرسلَ اللهُ تعالى الرُّسُلَ دُعَاةً إلى الحق، وهُداةً للخَلْق، وجعلَ الفوزَ والنجاةَ في اتِّباعهم، والخسرانَ والهلاكَ في مخالفتهم، والإعراضِ عنهم ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (١)

ومنهجُ الرُّسُل في الدَّعْوَة إلى الله جديرٌ أن يُتَّبع، وأن يُقتَدَى به؛ وقد هداهم الله تعالى واصطفاهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ (٢)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (٣)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٤)

ورُسُل الله جميعاً دُعَاة إلى دين واحد، هو عبادةُ الله وحده لا شريك له.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٥)

---

(١) النساء : ١٦٥.

(٢) الأنعام : من الآية ٩٠.

(٣) الممتحنة : من الآية ٤.

(٤) الأحزاب : ٢١.

(٥) الأنبياء : ٢٥.

دينٌ واحدٌ بُعِثَ به الأنبياءُ جميعاً، وأُمِرَ الرسولُ الخاتمُ ﷺ بالتبات عليه، والدَّعْوَةِ إليه.

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

إنَّ الذي يتدبَّرُ القرآنَ الكريمَ يعرفُ كُنْهَ هذا الدِّين وحقيقتَه.

إنه التوجُّه إلى الله ربِّ العالمين، في خضوعٍ خالصٍ لا يشوبه شرك، وفي إيمانٍ واثقٍ بكُلِّ ما جاء من عند الله على لسان أيِّ رسولٍ، دون تَفْرِقَةٍ بين رسولٍ ورسولٍ.

هكذا يُعَلِّمُنا القرآنُ الكريمُ.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢)

ويُعلِّمُنا الرسولُ ﷺ أنَّ هذا الدين بُنيانٌ واحدٌ، وأنَّ الأنبياء - جميعاً - لَبِناتُه ودُعَاتُه، وما أجملَ الإنصاف وأنت تسمعه من فَمِ الصَّادق الأمين ﷺ وهو يقول فيما رواه مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا، فَأَحْسَنَهُ، وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ

(١) الشورى : ١٥.

(٢) البقرة : ١٣٦.

لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ » (١)

هذه هي حقيقةُ الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً، ووصَّاهم الله أن يُقيمُوه ولا يتفرَّقُوا فيه ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (٢)

وقد بلَّغ الرسلُ ما أُمرُوا بتبليغه، وأقاموا الدِّينَ كما أمرهم الله، و لم يتفرَّقوا فيه، وإنما وقعت الفُرْقةُ فيمَنْ أُورِثُوا الكتابَ من بعدهم، فمضتْ فيهم سُنَّةُ الله التي لا تُحابي ولا تُجامل، ولا تتبدل ما دامت السماوات والأرض.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

من هنا نستطيع أن نقول: إن العالَمَ تجمعه - في الأصل - وَحْدَةٌ دينيةٌ، وأنَّ الفُرقةَ في الدِّين هي من صُنْعِ الأهواء والشهوات، ويبرأ منها جميعُ الأنبياء والمرسلين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٤)

إنَّ رسالات الأنبياء جميعاً دَعَتْ إلى هذا الأصل الخالد « الإيمان بالله »، ولذا نرى الإسلامَ يُنكرُ على الذين انحرفوا بهذا الأصل، ونسبوه إلى الدِّين ظُلماً وزُوراً.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الشورى : من الآية ١٣.

(٣) الشورى : ١٤.

(٤) الأنعام : ١٥٩.

والإسلامُ في إنكاره الانحراف في العقيدة إنما يَرُدّ الإنسانيةَ إلى وَحْدَةٍ صادقة، في ظلِّ توحيد صادق، وهو يُقرِّرُ - على ألْسِنَةِ الرُّسُل جميعاً - أنهم دُعَاة إلى الله وحده، وأنهم جميعاً ما طلبوا من أقوامهم إلاَّ أن يعبدوا الله، ما لهم من إله غيرُه.

* * *

إنّ منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله نستطيع أن ندركه من خلال تدبرنا لكتاب الله ﷻ، وقد حفظ الله تعالى الذِّكرَ لتظلّ الهدايةُ موصولةً لا تنقطع إلى أن يَرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

وفي حِفظ الكتاب رحمةٌ بالخَلْقِ، وإرشادٌ لهم إلى ما يحفظُ كرامتَهم، ويُحقّقُ نجاتَهم، ويُسدِّدُ خُطاهم على صراط مستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]

وفي حِفظ الذِّكر مُخاطبةٌ للأجيال كلِّها برسالاتِ الرسل جميعاً، وهم يَدْعُون إلى دينٍ واحدٍ لا يُبْتَغَى غيرُه، ولا يُقْبَلُ عند الله سِوَاه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[3]

وبذا تكونُ الإنسانيةُ كلُّها - من بدايتها إلى نهايتها - قد خُوطبت بهذا الدِّين، فلم ينفردُ به سابقٌ عن لاحِقٍ، أو يستنيرُ بنُوره جيلٌ دُونَ جيلٍ.. بل بقي الذِّكرُ سِراجاً

---

(١) الحجر : ٩.

(٢) الشورى : ٥٣.

(٣) آل عمران : ٨٥.

يُنيرُ لكلِّ جيلٍ، وبه يُخرِجُ الله مَن شاءَ من الظُّلماتِ إلى النُّور.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ (١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ (٢)

والنورُ حياةٌ للخَلْقِ أيُّ حياةٍ، وبغيره لا تتحقّقُ للناس حيَاةٌ، ودِينُ الله شمسٌ لا تغيب، إنْ بَارَحَتْ رُؤوسَ قومٍ أنارَتْ عند آخرين، ثم عادت إليهم في بُكورٍ تُوقِظُ نائمَهم، وتُنيرُ الطريقَ أمامهم، وتُريهم رِزقَ ربِّهم، وتُديم التبصرة والذِّكرى بينهم، وفي آيات الله ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾ (٣)

واللهُ الّذي أبقى الشمسَ ضياءً، حَفظَ الذِّكرَ هُدىً ورحمةً للعالمين. ومنه تُعرَفُ رسالةُ الرسل جميعاً، وما أُرسِلُوا به، وبه تُوزَنُ أقوالُ الناس وأعمالُهم في أيِّ زمان ومكان، فلا ادِّعاء على الرُّسُلِ والذِّكرُ قد نُزِّل وحُفِظَ.. لا ادِّعاءَ على الأنبياءِ والقرآنُ ينطقُ بالحق، وبه يُقذَفُ الباطل، فما نطقَ به عيسى عليه السلام في أمر الدِّين قد جاء به القرآنُ، وَمَا قاله موسى عليه السلام في أمر الدِّين قد حَفِظَه القرآنُ، وما جاء به الأنبياءُ

(١) المائدة : من الآية ١٥، الآية ١٦ بتمامها.
(٢) الشورى : ٥٢.
(٣) ق : ٨.

جميعاً نادى به القرآنُ، وَدَعَا إليه.

﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

أليس هذا ما قاله عيسى عليه السلام ودعا إليه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؟ (٢)

أليس هذا ما أُمِرَ به الناسُ على ألسنة الرسل جميعاً ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؟ (٣)

فلا مجالَ للتقوُّلِ عليهم والقرآنُ يُتلَى على النَّاسِ، ويَردُّ ما نَسبَتْهُ الأهواءُ إليهم، ويُحَذِّرُ من التفرقة بينهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٤)

---

(١) آل عمران : من الآية ٦٤.

(٢) المائدة : من الآية ٧٢.

(٣) التوبة : من الآية ٣١.

(٤) النساء : ١٥٠- ١٥٢.

والإنسانيةُ اليوم - وقد تحقَّق لها من الوسائل ما جعلها تعيشُ في بيتٍ واحد، يَسْمعُ بعضُها بعضاً، ويُصْغِي بعضُها إلى بعضٍ - عليها أن تستجيبَ لنداء ربِّها، ربِّ العالمين، وأن تأخُذَ بالأسباب التي تحقِّقُ لها التعارف كما أمر الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

إن القرآن الكريم دعوةٌ للناس جميعاً، والرسول الذي بُعث به رحمةٌ للعالمين.. فهل للإنسانية أن تُصغِي إلى النداء، وأن تجتمعَ على كلمةٍ سواءٍ ؟! فَرَبُّها واحدٌ، ودِينُها - الذي فُطرتْ عليه، وأُرسل به الرسلُ جميعاً - دِينٌ واحدٌ، والله هو الحق، ولا يقبلُ الباطل، والكلُّ عائدٌ إليه، ومُحَاسَبٌ بين يديه ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

هل آن للإنسانية أن تُصغِي للنداء ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

أخي المسلم: أنت مسئولٌ حيثُ كنتَ أن تُنادِي بما نادى به الله، وأن تُبلِّغَ رسالةَ الله في رُشْدٍ وحكمةٍ، وأن تتلوَا القرآنَ.

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (٤)

---

(١) الحجرات : ١٣.

(٢) النور : ٢٥.

(٣) آل عمران : من الآية ٦٤.

(٤) يونس : من الآية ١٠٨.

ثانياً : الدعوة إلى عبادة الله وحده

ومن الأصول العامة التي اتفقت عليها دعوةُ الأنبياء جميعاً : الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

ذاك هو الأصل الذي ينشأ عنه إصلاح ما فسد من أحوال الناس، و لم نَرَ نبياً من الأنبياء دعا قومَه إلى الإصلاح دون تقريرٍ لهذا الأصل الذي لا تصلح النفوسُ إلا به، ولا يستقيم شأنُها إلا بصحته.

ومَن تدبَّر هذا الأصل في دعوة الأنبياء راعَهَ اتفاقُهم في الألفاظ الدَّالة عليه، وفي السلوك الموصِّل إليه.. والخَلقُ جميعاً تَبَعٌ لهم، يسلكون سبيلَهم، ويتَّبعون منهجَهم، فليس لأحدٍ من الخَلق أن يُحدِّد - من عند نفسه - مفهومَ العبادة التي دَعَوا إليها وأمروا بها، ولا أن يُحدِث - من عند نفسه - في أمرهم ما ليس منه، ولا أن يقول في الله ما لم يقولوه، أو يصفَه بما لم يصفوه؛ فهم يتبعون ما أُوحي إليه، والخَلْق جميعاً مُطالبون أن يقتدوا بهُداهم، وأن يستمسكوا بالوحي الذي جاءهم.

ومن هنا كانت طاعتُهم طاعة لله، وعداوتُهم عداوة لله ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ** ﴾ [1]

إن طاعة الرسل واتِّباع منهجهم، أمرٌ يرتبط بهذا الأصل ولا ينفك عنه.

والرسلُ الكرامُ أُسوةٌ للخَلق فيما يدعون إليه، فلا يقولون للخلق: اعبدوا الله،

(١) النساء : من الآية ٨٠.

ويتركونهم يُحددون من عند أنفسهم كيف يعبدونه، بل يقولون: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾

تسمعُ ذلك من نوح عليه السلام وهو يقول لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

وتسمعُه من إبراهيم عليه السلام وهو يقول لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

بل تسمعُه من الأنبياء جميعاً وهم يُخاطِبون أقوامهم ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٣)

كلمات واحدة، تدعو إلى حقيقةٍ واحدة لا اختلاف عليها، ولا تفرقة بين دُعاتها.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (٤)

* * *

مفهوم العبادة في منهج الأنبياء:

إن الأنبياء يدعون الناسَ إلى عبادة الله تعالى وحده، ويُعلّمونَهم أن عبادته -

(١) نوح : ٢، ٣.

(٢) مريم : ٤٣.

(٣) الشعراء : ١٠٧- ١٠٩، ١٢٥- ١٢٧، ١٤٣-١٤٥، ١٦٢-١٦٤، ١٧٨-١٨٠.

(٤) الشورى : من الآية ١٣.

سُبْحَانَه - تكون في كُلِّ شأن من شئون حياتهم.. فيما يُؤمَرون به، أو يُنْهَوْن عنه، فيما يُسرِّون، أو يُعلنون، في خاصة أنفسهم، أو في معاملتهم مع غيرهم.

في كل شيء لهم معالمُ وحدود تنتهي النفسُ إليها، دون تَعَدٍّ أو تجاوز. والله بما يعملون محيط.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

وبذا تخضع الحياة كلُّها لمفهوم العبادة، فلا يكون فيها شيءٌ لقيصرَ، وشيءٌ لله، ولا يكون في ساعاتها ساعة للقلب، وأخرى للربِّ (كما يقولون) بل كُلُّ شيء لله، له لا لغيره.. لا يُستثنى من ذلك شيء ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٢)

ذاك هو مفهوم العبادة في منهج الأنبياء، فلا يُعبَدُ الله في مكان، ويُنْسى في آخر، ولا يُتَّقى في شأنٍ دون شأنٍ، وإنما يُعبَدُ في كُلِّ أمرٍ، ويُتَّقى في كلِّ شأن.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) يونس : ٦١.
(٢) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.
(٣) هود : ١٢٣.

إن الأنبياء - وهم يبلِّغون رسالةَ الله، ويأمرون الناسَ بعبادة الله وحده - لا يعزلون الناس بعبادتهم عن شئون الحياة، بل يُصلحون بالعبادة كُلَّ شأن من شئون حياتهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ (١)

دعوة إلى عبادة الله تمتد إلى كُلِّ شيء، وتقترن بالأمر والنهي.. النهي عمَّا يُسيء إلى الغير، أو يُنْقِصُ الحق ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ ﴾، والأمر بما يُحقق الوفاءَ في أداء الحقوق، دون بخسٍ أو انتقاصٍ ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

بذا تتحقق العبادة، ويُعرَف الصادقون، ويُعْلَم الكاذبون.

ولا تكون العبادةُ رهبانيةً معزولةً عن الحياة.. وإنما تكون مُحققةً لمعنى الحياة، بما تُمليه من صِدقٍ، وعدلٍ، وبرٍّ، ووفاء.. وما تأمرُ به من تعاونٍ على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.. وما تُحذِّرُ منه من جَورٍ، وظُلمٍ، وإساءةٍ، وإفساد.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ

(١) هود : ٨٤- ٨٦.

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١)

أرأيتَ ما وصَّى الله به في هذه الآيات الثلاث.

هل تركَتْ شأناً من شئون الحياة لم تُخْضِعْهُ لما وصَّى الله به ؟

وهل يكون عبدًا لله مَن ضيَّع وصيته ؟

وهل يُعْبَدُ اللهُ بغير طاعته، واتباع شرعته؟

* * *

إن الأنبياء - وهم يُبلِّغون رسالة الله، ويأمرون الناس بعبادة الله وحده - لا يعزلون النَّاس بعبادتهم عن دُنياهم، بل يُصلحون بالعبادة كلَّ شأنٍ من شئون حياتهم، ولا يفسدون؛ فالعبادة تحقيقٌ للخير والبرِّ، ونهيٌ عن الفساد والشر؛ طلباً للمغفرة، ورَغبةً فيما عند الله.

إن الفرائض التي أمر الله بها - من صلاةٍ، وزكاةٍ، وصومٍ - تبقى عند الله

(١) الأنعام : ١٥١- ١٥٣.

لطَهُورٍ يكُفُّ شرَّه عن غيره، وقد تذهبُ وتفنى إذا أساء صاحبُها إلى غيره.

روي مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »[1]

إن الدَّعْوَة إلى الله في منهج الأنبياء دعوةٌ إلى الاستقامة والإصلاح والطُّهر.. ومن هنا يُعرَفُ لماذا كان عِظَمُ الأجر من الله لَمن سقى كلباً، أو رفع أذىً من طريقٍ، أو أعان ذا حاجةٍ، أو دعا إلى خيرٍ، أو أمسكَ عن شرٍ..

أليس في ذلك دلالةٌ على أن عبادة الله - في صلاةٍ وصيامٍ وزكاة - لا تنفكُّ عن عبادته في معاملة الناس « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ »[2]

وكم من ناسٍ يقعُ عليهم من عذاب الله ما يقعُ بسبب ظُلمٍ أو اعتداء منهم على غيرهم.

في الصحيحين أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ ﷺ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ، فذكر لعائشه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبْ الأَرْضَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ »[3]

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ - مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ - فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (١)

وروى مسلم عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَأَوْجَبَ لَهُ النَّارَ. قَالُوا: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ، وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ، وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ. قَالَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ » (٢)

من هنا يُعلم أن العبادة - في منهج الأنبياء - شاملةٌ لشئون الحياة كلِّها، وليست في شأن دون شأن.. فالدَّعْوَةُ إلى الله كما تكونُ في أداءِ صلاة، تكون في إتيانِ زكاة، وكما تكونُ في نيَّةِ طُهرٍ، تكونُ في استقامةِ سعيٍ.. هي في المسجد، وفي البيت، وفي الشارع، وفي المزرعة، وفي المصنع.. لا يُعبد الله في مكانٍ ويُنْسَى في آخر، بل يُذكرُ في كل شأن، ويُخشى في كل أمرٍ.

وبذا يوجَدُ إنسان الأمن والسِّلم الذي يأمنه الناسُ - حيث كانوا - على أموالهم وأعراضهم ودمائهم.

يوجَدُ الإنسانُ الذي يُرجى لكل عصرٍ، ويُطلبُ لكل زمنٍ.. الإنسانُ الذي تُصانُ به الحُرمات، وتُحفظُ الأمانات، وتؤدَّى الحقوقُ.. الإنسان الذي ينصرُ الله في نفسه، بتغليب أمر الله على هواه، ويستجيب في كل شأن لنداء الله ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٣)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) النساء : ١٣٥.

ثالثاً : الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

أخي المسلم : إن منهج الأنبياء في الدَّعْوَةِ إلى الله لا يُعْنَى بيوم الإنسان ويُهملُ غَدَهُ، أو يجعله يعيش لدُنياه ويتركُ آخرته؛ فإن ذلك لا يتحقق به صلاحٌ وإصلاحٌ.

إن يومَ الإنسان يرتبط بغَدِه، ودُنياه ليست بمعزلٍ عن آخرته.

ومَن عاش لدُنياه دون نظرٍ لعاقبةِ أمره، فَقَدَ العدلَ والاعتدال في خاصَّةِ نفسه، وآثر الحياةَ الدنيا، وأخضع عقلَه وحواسَّه لها، ورأى نفسه بها.. ولم تكن آياتُ الله الدَّالة على الحق عنده إلا سبيلاً للباطل، لا يأخذُ منها تبصرةً وذكرى لمعرفة الله وخشيته، وإدراك حِكمته وقُدرته، والإعداد لما هو مُقبلٌ عليه من لقاء ربِّه، والحساب بين يديه.. بل يراها لمتاعه ومأكله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

إن عُمْرَ الإنسان في الحياة الدنيا هو أقصرُ مرحلة بالنسبة لما بعده، وهو سريع التقضِّي، سريع الزوال. والمذاهب التي تُلْهِي الناسَ بدُنياهم، وتشغلهم بها عمَّا هُم قادمون إليه، مذاهبُ قاصرةٌ عاجزةٌ خادعةٌ، تُمنِّي الإنسانَ وتُغريه بما لا يَبْقى له، وتصرفه عمَّا هو باقٍ وصائرٌ إليه.

والوحي الإلهي هو السبيلُ لتبصرةِ الإنسانِ بجميع أمره.. في شئون دُنياه وآخرته.

من أجل ذلك أرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ، وأنزل الكُتب؛ ليكون الإنسانُ على علمٍ بما

---

(١) محمد : من الآية ١٢.

غاب عنه، فلا تُلهيه الرغائبُ عن العواقب، فيوثِرُ دُنياه ويَذَرُ آخرته، فيخسرُ الدنيا والآخرة معاً.. ذلك هو الخسران المبين.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

الوحيُ - وحده - هو الذي يُنيرُ الطريقَ للإنسان، ويُريه مراحلَ سَيره - من بداية أمره إلى منتهاه - كما يُعْلِمُه أن انتقاله من مرحلة إلى أخرى إنما هو بإذن من الله وبعلمٍ منه.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

آياتٌ بيِّناتٌ تُري الإنسانَ نفسَه - من بداية أمرِه إلى مُنتهاه - وتُعْلمه أن الله

(١) الكهف : ١١٠.

(٢) فاطر : ١١.

(٣) المؤمنون : ١٢- ١٧.

الذي خلقه ليس بغافلٍ عمَّا خَلَقَ ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

وما من شأنٍ من شئون الخَلق، أو مرحلة من مراحل السَّير، إلاَّ ولله فيها أمر.. وتدبَّر آيات الله الَّتي أُنزلت لترى كيف تُحاط بعلمه، ولا تسكُن أو تتحرك إلا بإذنه، ولا أحدَ يُستأذن في خَلق أو موت، بل لله الأمر جميعًا، وإليه يرجُع الأمر كله.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

هكذا يُحاط الإنسانُ بعلم الله، فلا يخفى من أمره شيء، وينتقل من حال إلى حال بأمر الله وحده ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢)

وفي ذلك ما فيه من حَثٍّ على الإعداد والتزود بخير زاد؛ فإن الأجل إذا جاء لا يُؤخر، والموت إذا أقبل لا يُنْظِره، والرسل المكلَّفون لا يُفَرِّطون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣)

هذا ما أوحى الله به، وبيَّنه للناس.. والله تعالى سائلهم من بعد ما بيَّن لهم الهُدى.

---

(١) الأنعام: ٦٠ - ٦٢.

(٢) لقمان: من الآية ٣٤.

(٣) الأنعام: من الآية ٦١.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾ (١)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ (٢)

وفي إشهاد الرُّسل على أُممهم - في يوم الجمع - ما فيه من دَلالة على عِظَم الأمر وخَطره، وأنَّ له شأنًا أيّ شأن.. فالله الذي أرسل الرسلَ، وأنزل الكتب سيُحاسبُ الناسَ على موقفهم، ويُسألُ مَن أُرسل إليهم، ويُسألُ - كذلك - المُرسَلُون؛ ليعلمَ الناسُ جميعاً أنَّ ما جاءوا به من عند الله هو الحق، وأنهم قد بَلَّغوا ما أُمِرُوا بتبليغه من وعد الله ووعيده لمن آمن ومن كَفَر.

وها هُم في المشهد الرهيب في يوم الفصل يَشْهَدون، وكل شيء يُصَدِّقهم، ولو كان قبلُ من المكذِّبين لهم، الجاحدين لرسالتهم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣ ﴾ (٣)

* * *

(١) الأعراف : ٦، ٧.

(٢) النحل : ٨٩.

(٣) الأعراف : ٥٣.

ومن رحمة الله بالخلق، ومن الإعذار لهم أن يُخطرُوا بمثل هذا الموقف قبل أن يصلوا إليه؛ ليعُدُّوا له، وليتزودوا بخير زاد.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ (١)

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢)

وفي صحيح البخاريُّ وغيره، عن ابن مسعود ﷺ قال: ((قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟! قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (٣) قَالَ: حَسْبُكَ الآنَ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ)) (٤)

هكذا رأينا رسول الله ﷺ وهو يستحضر يومَ القيامة يبكي هذا البكاء، وكيف لا وهو القائل ﷺ: ((وَاللَّهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) (٥)

---

(١) التغابن: من الآية ٩.

(٢) غافر: ١٦- ٢٠.

(٣) النساء: ٤١.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

بيان العاقبة والتذكير بها:

إن لكُلِّ أمرٍ عاقبته، ولكل عملٍ جزاءه.

ومَن أيقن بذلك حاسب نفسه ووقاها سُوءَ العاقبة.

وسُنَنُ الله لا تُحابِي أحَداً ولا تُجامل بَشَراً ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

ومنهج الأنبياء حَفِيٌّ ببيان العاقبة.. فهم مُبشِّرون ومُنذِرون.

والقرآن الكريم - الذي حَفِظَ رسالتهم جميعاً، واؤتُمِن عليها - يبيِّن لنا نتائج الأعمال وعواقب الأمور بما لا يدع سبيلاً لحُجَّة أو معذرة، ولا يغيب ذلك على مَن تدبَّر القرآنَ واهتدى بهُداه.

وكثيراً ما ترى نتائج الأعمال مُتَّصلة بها، غير بعيدةٍ عنها.

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (٢)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) النساء: من الآية ١٢٣.

(٣) الزلزلة: ٧، ٨.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ (١)

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ ﴾ (٢)

وتكاد تلمس دلالة الشرط والجزاء - أو قُل: جزاء الأعمال وما يترتب عليها - في القرآن الكريم كُلِّه، حتى فيما ورد بصيغة الخبر ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ ﴾ (٣)

وما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وتراه يُبصِّر قومَه بالعواقب، ويُحذِّرهم من مَغَبَّةِ السُّوء والميل عن الصراط المستقيم.

تسمع ذلك من نوح عليه السلام وهو يقول لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤ ﴾ (٤)

فترى النتائج مُقترنة بما دعاهم إليه، فإن هم استجابوا تحقَّق الجزاء، وحسُنت العاقبة ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ ﴾ (٥) وإن أعرضوا وكذَّبوا، وقع الجزاءُ، وساءت العاقبة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ

---

(١) الطلاق : من الآية ٢، والآية ٣.

(٢) الطلاق : من الآية ٥.

(٣) الأنفال : ٤٢.

(٤) نوح : ٢- ٤.

(٥) نوح : ١٠- ١٢.

وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

وتسمع ذلك من إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب والده ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

فترى النتائج مقترنةً بالقول، في: أمرٍ أو نهي، في اتّباعٍ أو إعراض.

وتلمس ذلك منه وهو يخاطب قومه ويدعوهم إلى عبادة ربِّه.. ترى النتائج والعواقب فيما ذكّرهم به ودعاهم إليه ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣)

يُذكّرهم بالمصير الذي ينتهون إليه، إنْ هُم أصرُّوا على التكذيب سيُصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ ﴾ (٤)

---

(١) يونس : ٧٣.

(٢) مريم : ٤٣- ٤٥.

(٣) العنكبوت : ١٦- ١٨.

(٤) العنكبوت : من الآية ١٨.

وحين يدعوهم إلى عبادة الله وتقواه وينهاهم عن عبادة غيره، يذكر لهم النتائج، ويُبصِّرهم بالعواقب، وأنهم راجعون إلى الله، ومُحاسبون بين يديه، وفي ذلك ما فيه من حَثٍّ على تدبُّر العواقب بإحسان العمل، وإخلاص القصْدِ لله.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

* * *

ويا لَها من حسرةٍ لأولئك الذين غفلوا عن العاقبة، وألهتهم العاجلة عن الآخرة حين يُسألون فيجيبون ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٢)

إن العاجلة التي أحبُّوها قد ذهبت، والآخرة التي تركوها قد حقّت وبقيت، ووقع الخسران لأولئك الذين نَسوه من قبل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) العنكبوت : ١٧.

(٢) المؤمنون : ١١٢- ١١٦

(٣) الزمر : من الآية ١٥.

وفي العاقبة ترى المكذِّبين يُعلنون تصديقَ مَن كذَّبوه؛ طلباً للنجاة، وترى المصدِّقين - وقد فازوا - يُعلنون الحمدَ لله، وترى هؤلاء وأولئك يقولون: ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ (١)

يقولها أهلُ الإيمان حمداً وشُكراً أنْ وفَّقهم الله لحُسْنِ الاستجابة له وللرسول، ويقولها أهلُ الكُفْر أسَفاً وندماً أنْ عَتَوا عن أمر ربِّهم وعَصَوا رُسُلَه، يقولونها يومَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ (٢)

ومن قبلُ جاءهم الرُّسُلُ فكذَّبوهم، وجحدوا بآياتِ ربِّهم، ونَسَوا لقاءَ يومهم هذا ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ ﴾ (٣)

هذا ما يقولُه أهلُ الكُفْرِ حين يرَوْنَ العذاب، يقولون: ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾، وهو قولٌ لا ينفعُ صاحبَه وقد كفر به من قبل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ ﴾ (٤)

---

(١) الأعراف : من الآية ٥٣.

(٢) الأنعام : من الآية ١٥٨

(٣) الأعراف : ٥٢، ٥٣.

(٤) سبأ : ٥١- ٥٣.

أما أهلُ الإيمان - الذين آمنوا بالله ورُسله، وأحسنوا الاستجابةَ، واستقاموا كما أُمِرُوا - فذاك جزاؤهم، وهذا قولُهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

لقد عَرَفوا - من قبلُ - صِدْقَ رُسلهم، وأنهم ما جاءوا إلا بالحقِّ من ربِّهم، فأطاعوهم، وأحسنوا اتِّباعَهم، ففازوا برحمةِ ربهم، وسَعِدُوا بجنَّته.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

* * *

أثر الإيمان بالآخرة والتذكير بالعاقبة في حياة الناس :

إن المنهج الرباني الذي بَعَثَ الله به الأنبياء يُري الناسَ حقيقةَ أنفسهم، وما هم مُقبلون عليه، فمَن تدبَّر منهجَهم - كما جاء في القرآن الكريم - عرفَ حكمةَ خَلْقه، وغايةَ وجوده، بلا إبهام أو غموض، ورأى الطريقَ إلى الغاية التي خُلق من أجلها نيِّرا لا تَخْفَى معالمُه.

---

(١) الأعراف : ٤٣.

(٢) فاطر : ٣٤، ٣٥.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [1]

إن الإيمانَ بالآخرة يجعلُ من عمل اليوم عطاءً بارًّا للغد، يبتغ الإنسانُ فيه الدارَ الآخرةَ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فيحظى العملُ بالإخلاص والإتقان والإحسان؛ لأن صاحبه يُوقنُ أن الله لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسن عملاً، وأن الله جعل لَمن آمنَ وعمل صالحاً جناتِ الفردوس نُزلاً.

ويقرأُ ذلك في آياتِ ربِّه؛ تذكرةً لَمن يخشى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [2]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [3]

وبذلك تنعمُ الدنيا بسعي الآخرة..

إن سعي الآخرة يُرجى في الكلمة التي ينطقُ الإنسانُ بها؛ فهو مؤاخَذٌ بما يقول، فلا يقولُ إلا حقاً، ولا ينطِقُ إلا صِدقاً..

يُرجى في عمل الإنسان وكَدِّه وجَدِّه، وهو يَمشي في مناكب الأرض يأكلُ من رزق ربِّه.

يُرجى في نيَّة خيرٍ، وبسمةِ بِرٍّ، وأَمْرٍ بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين الناس.

---

(١) الأنعام : ١٥٣.

(٢) الكهف : ٣٠.

(٣) الكهف : ١٠٧.

يُرجى سعي الآخرة في طلبِ العلم، والسعيِ له، والصبرِ عليه..

كما يُرجَى فيما بُني الإسلام عليه من فرائض تجمع الناسَ على الخير، وتُزوِّدهم بخير زاد - وخير الزاد التقوى - وتُبعدهم عمَّا تسُوءُ به روابُطهم، ويفسد جَمْعُهم..

فسعيُ الآخرة لدُنيا الناس - أوَّلاً - إصلاحٌ وإحسانٌ، وبرٌّ وعدلٌ، بدافعٍ يُصان به عملُ الخير من المَنِّ والأذى، يفعله الإنسان وهو يخشى مقام ربِّه، وينهى النفس عن الهوى، فلا يفعل الخير مراءاةً للناس، بل يفعله ابتغاءَ مرضات ربِّه، في سِرِّه وعَلَنِه، مع القريب والبعيد، والعدو والصديق.. وفي ذلك ما فيه من تعميرٍ لدُنيا الناس بالفضائل والإخلاص؛ فإن الجنة والمغفرة من الله إنما تُطلَبُ بالإنفاق في السَّراء والضرَّاء، وإخضاع النفس لمرضات الله، والعفو عن الناس، والإحسان إليهم، والتوبة من الإساءة، وعدم الإصرار عليها..

ذاك ما تُطلَبُ به الجنة، وتُرجى به المغفرة.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ (١)

(١) آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦.

أرأيت - أخي المسلم - أن سعي الآخرة صلاحٌ لدُنيانا وإصلاحٌ فيها، وليس هجرًا لها.

إن سعي الآخرة عمل صالح في تعميرها وأَمنها وسلامها، عملٌ يقترنُ بالإيمان، فيحظى بالإحسان، ويسلمُ من الإساءة.. أما حين يُؤثرُ الإنسانُ الحياةَ الدنيا، وينسى الآخرة، فإن دُنياه ستفقدُ العدلَ والاعتدالَ، في ذات النفس وفي معاملة الغير، وسيصبحُ كلُّ شيء عنده محسوباً بالمنافع العاجلة، دون نَظَرٍ للعقبى والآخرة.. مع أن الأصل أن يبتغي بالأعمال ما يبقى، لا ما يفنى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (١)

ولا تَسَل عمَّا يكون في دُنيا الناس - من ظُلمٍ وفسادٍ، وبغيٍ وتسلُّطٍ - إنْ هُم عاشوا لدُنياهم دون نظرٍ لأُخراهم..

إنهم بذلك يفقِدُون أَمنهم وأمانهم، ولا يُغنيهم - في ذلك - تنافُسُهم على إحرازِ الكَمِّ من السلاح؛ فإن التنافسَ عليه لا يقفُ عند حَدٍّ، ما دام الإنسان لا يقف عند الحدود والمعالم التي حدَّدها الله له، وأرسل من أجلها رُسُلَه.

ويُخطئ مَن يظنُّ أن أمنًا يكون بلا إيمان، أو سلاماً - حقًّا - يكون بغير اتباع شِرعةِ الحق والعدل.

إن وسائل البشر - قاطبة - عاجزةٌ عن إيجاد إنسان السِّلم والأمن، عاجزةٌ عن معرفة ما يطويه في نفسه، ويبيِّته لغيره، والخشية من الله - وحدها - هي القادرة على أن تَئِدَ الجريمةَ المُبيَّتةَ في نفس صاحبها قبل أن تُولَد، هي القادرة على أن تَئِدَ جريمة

(١) القصص : من الآية ٧٧.

الغش قبل أن تقع، وأن تصرفها من نفس صاحبها قبل أن تصيب الناس أو توصِّل الفساد إليهم.

وهل كانت وسائل البشر حاضرة عندما أبت فتاة الشرف والطُهر أن تطيع أمها وهي تأمرها أن تضع ماءً على اللبن؛ حتى يزداد دخلها، وتربح مالاً من غِشِّها ؟

هل كانت وسائل البشر قادرة على أن تمنع هذا الغش الذي لا زال في حُضن بيت مُغلَق ؟

لم تمنعه إلا خشية الله، والإيمان بالآخرة.

وهذا ما عبَّرت عنه فتاةُ الشرف والطُهر حين قالت لها أُمها: ((إذا كنت تخافين عمر، فإن عمرَ لا يرانا))، فقالت الفتاة في رُشد وعِفَّة، وإيمانٍ وصدق: ((**والله، ما كنت لأطيعه في الملا، وأعصيه في الخلا، وإن كان عمر لا يرى، فإن ربَّ عمر يرى**)).

وصدق الله : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝** ﴾ [1]

أخي المسلم :

بهذا المنهج المستقيم - الذي يُبَصِّرُ الإنسانَ بحقيقة أمره من بدايته إلى منتهاه - يتحققُ الاعتدال في سلوكِ الإنسان، فلا يضيعُ بين الإفراط والتفريط، ولا يهلك بالغُلُوِّ أو القعود، بل تتَّزن خُطاه، فلا يعمل لدُنياه وينسى أُخراه، ولا يطلبُ الآخرةَ بغير ما شرع الله.

تتَّزنُ خُطاه وهو يُوقن أن الحياةَ الدنيا مَتَاع، وأن للإنسان مراحلَ أخرى ينتقل

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

إليها ويحيا فيها.. والأمر في ذلك كلّه لله وحده، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه..

تتَّزن خُطا الإنسان فلا يُشركُ بالله شيئاً وهو يعلم أن أحدًا لا يملك مع الله شيئاً، ولا يعيشُ في دُنياه مُضَيَّعًا بين الأسى على ما فات، والفرح بما أُعطى، وهو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه..

تتَّزن خُطا الإنسان ويُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يميل مع الهوى وهو يوقن أن الهوى مُضِلٌّ مُهلك، وأن النجاة في اتباع الحق والرضى بحُكمه.

أخي المسلم: ذاك هو منهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، يُحدِّد للناس كلَّ شيء، ويُريهم ما هُم مُقبلون عليه، وقادمون إليه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (١)

* * *

(١) الأنفال : من الآية ٤٢.

ثالثاً : الدعوة إلى مكارم الأخلاق

أخلاقُ هذا الدين مستمدَّةٌ من عقيدته [1].

وعقيدته - كما نعلمُ - فيها من العُمق والثبات والرسوخ ما يُعطي الأخلاقَ نفسَها رُوحَ الثبات والقوة والشمول.

وهي ليست نظريات فلسفية، أو مصطلحات علمية تُحفَظ ويُقاسُ عليها، أو لا يُقاسُ، بل هي نورٌ تحيا مع الوجدان، كما تلتقي مع منطق الفكر وسماحة الفطرة.

واتصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها رُوحَ التجرد من المنافع، والتخلص من الرياء الكاذب، فلا ينهي الإنسانُ عن خُلقٍ ويأتي مثله، كما لا يتَّخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص، واستغلال البسطاء والسذج، وإنما تقومُ الأخلاقُ في نفسه مقامَ المجاهد في ميدان الشرف والبسالة، يُدافع عن غاية، ويرفعُ سيفه ويخفضه استجابةً لمبدأ، ويُلقي بنفسه في أتون معركة يجودُ فيها بنفسه؛ ليمنح الحياةَ مَن وراءه ظافراً بما عند الله.

وكذلك الأخلاق قد تضطرك أن تبذلَ كل مرتخص وغال، ولا تستطيع أن تخرج عن قانونها، أو تخالف حكمها.

فكل خُلق في الإسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد، وليس للأخلاق إلا غاية واحدة : « الإيمان بالله واليوم الآخر »، وهذه الغاية هي التي تُحدِّدُ الباعثَ على العمل لتتجه به إلى طريقٍ مستقيم.

---

(١) راجع كتابنا : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية.

وقد حدَّد رسولُ الإسلام ﷺ الغايةَ الأولى من بعثته، والمنهاجَ المبين في دعوته بقوله: « إنما بُعِثْتُ لأُتمم مكارم الأخلاق » (١)

فكأنَّ الرسالة التي خَطَّت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبُها جهداً كبيراً في مَدِّ شعاعها وجَمْع الناس حولها، لا تنشدُ أكثرَ من تدعيم فضائلهم، وإنارةِ آفاق الكمال أمام أعينهم؛ حتى يَسْعَوا إليها على بصيرة.

والعبادات التي شُرعت في الإسلام، واعتبرت أركاناً في الإيمان به، ما هي إلا تمارين متكرِّرة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاقٍ صحيحة، وأن يظلَّ مستمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيَّرت أمامه الظروف، ولهذه السجايا الكريمة - التي ترتبط بها أو تنشأ عنها - أُعطيت منزلةً كبيرةً في دين الله.

ففي الصلاة يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾ (٢)

وعن الغاية من الزكاة يقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٣)

وعن غاية الصوم وثمرته يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (٤)

وعن غاية الحج والحكمة منه يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى.

(٢) العنكبوت :من الآية ٤٥.

(٣) التوبة : من الآية ١٠٣.

(٤) البقرة : ١٨٣.

فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ (١)

ومن الأصول العامة التي اتفقت عليها كلمةُ الأنبياء: الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتزكية النفوس بها؛ بدليل قوله ﷺ: « إنما بُعِثْتُ لأُتمم مكارم الأخلاق » (٢)، فكلمة « أُتمم » تُشير إلى الجهد السابق لأنبياء الله تعالى في هذا الشأن.

وفيما يلي نعرض لأبرز هذه الأخلاق، وأثرها في حياة الأنبياء.

١- التوكل في حياة الأنبياء :

من البيِّنِ الواضح في منهج الأنبياء حُسْنُ توكلهم على الله. وهو ناشئٌ من صِدْقِ معرفتهم بربِّهم، وإيمانهم بكامل صفاته، وهم بصادق توكُّلهم على الله يُبلِّغون رسالةَ الله في حِكمةٍ وثِقةٍ، وثباتٍ وصَبْر، ويُعلنُون توكُّلَهم على الله وحده وهم يواجهون سفاهةَ قومهم، وسُوءَ مَكْرهم وتدبيرهم ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ (٣)

إن التوكُّلَ على الله في منهج الأنبياء أَصْلٌ في تحمُّلهم المشاقَّ والمصاعب، وثباتهم في الشدائد، وقيامهم بما أوجب الله عليهم من تبليغٍ وإنذار.. فكَم مِن تآمُرٍ وقع على نبيٍّ من أنبياء الله فما رأيناه قد وَهَنَ لما أصابه في سبيل الله، أو ضَعُفَ واستكان. بل رأيناه يصدع بما أُمِرَ به؛ موقِناً بنُصْرَةِ الحق الذي يدعو إليه، وأن العاقبةَ له دون سواه.

---

(١) البقرة : ١٩٧.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى.

(٣) الطلاق : من الآية ٣.

كثيراً ما ترى اعتداءَ أُولي البغي بقُوَّتهم، وتفاخرهم بجَمْعهم وسَطْوتهم، واستخفافهم بأتباع الأنبياء، وتسلطهم عليهم، وتماديهم في السُّخرية والكيد، والاستفزاز والصَّد، وترى المؤمنين بالله يُواجهون ذلك كُلَّه بصِدْقِ التوكل على الله والاستمساكِ بالحق.

والأنبياء هم أُسوةُ الخَلْق في ذلك.. أُسوتُهم في الصبر، والصدق، والثبات على الحق، أُسوتُهم في صِدق الإيمان بالله وحُسن التوكل عليه.. لا تستخفهم وسائلُ الذين لا يوقنون، بل يبرأون من الشرك مهما كَثُر جمعُه، وبَغَى أهلُه، ويُعلنون دعوتهم إلى الله، مخلصين له، متوكلين عليه، يخشونه ولا يخشون أحداً سواه.

ولننظر ما كان عليه الأنبياءُ؛ لنُحْسِنَ الأُسوةَ بهم، والاقتداء بهُداهم، والقرآن الكريم يقصُّ علينا من أنبائهم ما فيه موعظةٌ وذكرى للمؤمنين.

يقول تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

هكذا واجه نوحٌ عليه السلام قومَه مُعلناً حُسْنَ توكله على الله، غيرَ آبهٍ بما لهم من جَمْعٍ أو صَدٍّ أو كيدٍ.

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ

(١) يونس: ٧١.

وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

وتسمعُ هوداً عليه السلام وقومُه يريدون أن يسندوا شيئًا لآلهتهم الباطله - وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا - ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ﴾ (٢)، هكذا نراهم يُعلنون باطلاً وشركاً، ونرى هوداً عليه السلام يُعلنُ حقاً وصدقاً، معتمداً على الله، متوكلاً عليه ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣)

وتأتي العاقبةُ مُدمِّرةً لِمَن كَفَرَ وأشرك، مُنْجيَةً لِمَن آمن وأخلص دينَه لله، وعلى ربِّه اعتمد وتوكل ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤)

وهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٥)

---

(١) يونس : ٧٢، ٧٣.

(٢) هود : من الآية ٥٤.

(٣) هود : ٥٤- ٥٦.

(٤) هود : ٥٨- ٦٠.

(٥) يونس : ٨٤- ٨٦.

وتأتي العاقبة مُغْرِقَةً مُهلكة لِمَن كَذَّب وكَفَر، مُنْجيةً لِمَن آمن وأخلص لله، وأحسن التوكل عليه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

وعن شعيب عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) يونس: ٨٧- ٩٢.

(٢) الأعراف: ٨٨، ٨٩.

توكُلٌ على الله تُصان به النفسُ من الضعف والاستكانة والهوان، وتُحفظ به من فتنة الحياة وفتنة الممات، وتظفرُ بتأييد الله ونَصْره، وفضله ورحمته، وتمضي واثقةً في الدَّعْوَة إلى الإصلاح، وتُعلنُ ما قاله نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام وهو يدعو قومَه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١)

توكُلٌ على الله لا يقف صاحبُه موقفَ سلبٍ من ضلالِ قومه وفسادِهم، بل ينصحُ لهم وإن أساءوا، ويُعلن براءته من شِركهم، غيرُ مُبالٍ بوعيدهم أو تهديدهم، وكيف يُبَال بتهديد الباطل مَن يؤمنُ بالحق ويعملُ به؟!

إن مَن يتوكل على الحي الذي لا يموت ترتفع هامتُه عِزَّةً بربِّه، ويرى في جميع أمره أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فلا يرضى بباطلٍ، ولا يركنُ إلى ظالمٍ، ومَن أحسن التوكُلَّ على الله طلب ما عنده بطاعته، وسعى لمرضاته، ولم تستطع قوى البغي – مهما عظُمت – أن تصرفه عن قَصْده، أو تُبعده عن غايته..

وتلك هي ثمرة الإيمان بالله الواحد الأحد.. ثباتٌ في القَصْد، وطمأنينةٌ في القلب، واستقامةٌ في السعي، وتوكلٌ على الله في جميع الأحوال، وثِقةٌ في الله لا تُضعفها الشدائد، ولا تميل بها المصائب.. بل تزكو وتقوى.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) هود : من الآية ٨٨.

(٢) الملك : ٢٩.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

* * *

أخي المسلم : رأينا ما كان من صِدْق توكُّل الأنبياء على الله، وصِدْق إنابتهم إليه.. وهو أصلٌ في منهجهم وبيانهم في الدَّعْوَةِ إلى الله ﷻ، يُعلنونه لأقوامهم، ويُبصِّرونهم به، ويُواجهون به عنادَهم وكيدَهم ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

بهذا أُمِروا، وعليه قام منهجُهم، واستقامت دعوتُهم.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (٣)

﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ ۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤)

إن الأنبياءَ – وهم دُعَاةٌ إلى الله – يُخلصون القَصْدَ له، ويُحسنون التوكل عليه.

---

(١) التغابن : ١٣.

(٢) إبراهيم : ١٢.

(٣) هود : ١٢١- ١٢٣.

(٤) الزمر : من الآية ٣٨.

وفي منهجهم بيانٌ لحقيقة التَّوكُّل، وأنه أخْذٌ بالأسباب دونَ ركونٍ إليها، واعتمادٌ على الله دونَ تفريطٍ في القيامِ بها.. مع اليقين بأن النتائج بيد الله وحده، لا شريك له.

ومن رحمته تعالى بخَلقه أن هيَّأ الأسبابَ، وأمرَ عباده أن يأخذوا بها.

وتَرْكُ الأسباب معصية، والركونُ إليها - من دون الله - ضلالٌ ومفسدة.

ومَن عَرَفَ ذلك اتَّخَذَ من الأسباب سبيلاً لمرضاتِ ربِّه وحُسنِ التوكل عليه، ولم تصْرِفْهُ الأسبابُ عن شُكره وذِكره، والتسبيحِ بحمده.

إن التوكل الذي أُمِرَ به الأنبياءُ، ودعوا الناسَ إليه ليس قُعوداً عن الأخذ بالأسباب، وليس قولاً بلا عمل.. بل هو يقينٌ وَقَرَ في القلب وصدَّقه العمل، يقينٌ تنهضُ به النفوس بلا قنوط أو يأس، وكيف يتسرَّبُ اليأسُ إلى مَن يتوكل على الحي الذي لا يموت ؟! أو تقنط نفوسٌ تؤمن بمَن له الخَلْق والأمر ؟!

إن توكلها على الله يُقوِّي عَزْمَها، ويُفسح أملها، ويُحقق رجاءها، ويُبعد عن ساحتها الضعفَ والاستكانة، ويجعلها حيثُ يرضى الله ويُحب، فلا يقول القـائل: « حسبي الله » وهو يَفِرُّ من معركة الحياة، بل يقولها وهو يُلاقي بَأْسَاءَهَا وضرَّاءَها، يقولها وهو يواجه سفاهةَ المبطلين وكيدَ المكذِّبين.

يقولها إبراهيمُ عليه السلام وهو يُلقى في النار التي أوقدها الأخسرون، ويقولها الرسول ﷺ حين قال له الناس ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ [1] فما أسكتت النارُ قولاً لإبراهيم، ولا أقعد التهديدُ أهلَ الإيمان عن متابعة العدو وهم من الجراحات

(١) آل عمران : من الآية ١٧٣.

ما بهم، بل تبعوهم وهم يقولون: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

فكان التوكل - في الحالين - بَرْداً وسلاماً على إبراهيم، ونعمةً وفضلاً من الله على المؤمنين.

إنه التوكل الذي تنشط به الحياة، وتقوى العزائم، ويزداد الثباتُ والإيمان.

ومَن تدبَّر أمرَ يعقوب عليه السلام - وقد ابيضت عيناه من الحُزن؛ أسفاً على يوسف - يرى ما فعل التوكلُ على الله في نفس المصاب، وهو يقول لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

وإنك لتلمس في نفس يعقوب حركة النفس وحركة الحس معاً ﴿ ٱذْهَبُوا۟ ﴾، ﴿ فَتَحَسَّسُوا۟ ﴾، ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ ﴾.

فأيُّ قوة يمكن أن تُقابِلَ بها أحداثَ الحياة مثل هذه القوة ؟

وأي رجاء يمكن أن تستقيم معه شئون الحياة بعد هذا الدعاء ؟

إن التوكُّل على الله لا يدع صاحبَه يهوي صريعَ الألم واليأس والانقباض، بل يدفعه إلى عملِ الدنيا والآخرة، في ثقةٍ ورجاءٍ وصبرٍ، فيعود بعطاءٍ من رحمةِ ربِّه، وفيضٍ من نِعَمِه وفضله، مأجوراً في مُصابه، مُفلحاً في عاقبته.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) يوسف : ٨٧.

(٢) الأنفال : من الآية ٤٩.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

إن اليقين بالله والتوكُّلَ عليه باعثٌ على الأمل والعمل، والأمل مع اليقين، والرجاء مع التوكل ليسا شيئاً مؤقّتاً يتحوَّل إلى قنوط أو يأس إذا ذهب المطلوب أو أبطأ المرغوب، بل هو مستقرٌّ في النفس استقرارَ اليقين في القلب، يمتد ويقوى كلّما عظُم الكربُ أو أشتدَّ ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

هكذا يكون حالُ المتوكلين على الله، لا يقعدون عن أداء ما أُمروا به، ولا يتخلّفون عن رسولهم فيما دعاهم إليه، بل تراهم حين البأس صابرين صادقين، وفي ساعة الشدَّة مُقبلين مؤمنين أنه لن يُصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وهكذا يكون توكل المؤمنين ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣)

وهذا ما تراه بيِّناً واضحاً في منهج الأنبياء، وما تراه في سلوك أتباعهم من المؤمنين الصادقين ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) النحل : ٤١، ٤٢.

(٢) الأحزاب : ٢٢.

(٣) التوبة : ٥١.

(٤) الممتحنة : من الآية ٤.

أخي المسلم : جديرٌ بمَن كان على الحقِّ أن يُحسن التوكل على الله؛ فإن التوكل على الله دلالة صِدْقٍ على معرفة الحق، وما يجب له، وهو عصمةٌ لصاحبه من الركون إلى شيءٍ من الباطل؛ فإن اتِّباعَ الحق مخاصمةٌ لأرباب الهوى والباطل، الذين يكرهون الحق، ويَضيقون بأهله، ويتكبرون في الأرض بغير الحق.. وهؤلاء لهم وسائلُهم في الصَّدِّ والإغراء والاستخفاف والكيد، ولهم مطامعهم في تطويع أهل الحق، وردِّهم بعد إيمانهم كافرين.. والتوكل على الله حميٌ لصاحبه، وحَصَانةٌ له من الوَهن والضعف، واستخفاف أهل النفاق والكُفر، التوكل على الله باعثٌ على الحركة في غير يأس، داعٍ إلى الصبر في غير جزع، مُحققٌ للثقة في العاقبة دون شكٍّ أو ريب.

إنَّ مَن هُدِيَ إلى الحقِّ جديرٌ به أن يُحسنَ التوكل على الله الذي هداه، وما كان له أن يهتديَ لولا أن هداه الله ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

وهذا أَمْرُ الله لنبيِّه؛ تثبيتًا له، وتعليمًا لأُمَّته ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ (٣)

إنَّ من نتائج العلم بالحق والإيمان به حُسن التوكل على الله، واليقين بنصرته،

---

(١) إبراهيم : ١٢.

(٢) النمل : ٧٩.

(٣) الأحزاب : ١- ٣.

وحُسن عاقبته.. ودلائل الحق أبينُ من أن تخفى على ذي بصيرةٍ، ومَن عرف الحق عَرَفَ أهله، وتوكلَ على اللهِ، لا على غيره.

ولم أرَ شيئا تنهض به الهِمَم، ويتحقق به الثبات، وتَحسن به العاقبة، مثلَ التوكل على الله.. لقد رأينا المسلمين مع رسولهم ﷺ في "أُحُدٍ" وجراحاتُهم لم تَنْدَمِلْ، وقد طمع العدوُّ في العَوْد إليهم، ولكن أهل الإيمان كانوا أسرعَ وأمضى في متابعته؛ استجابة لله وللرسول، وكان لهم من النتائج ما ذَكَرَ الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾** ﴾ [1]

أخي المسلم: ذاك هو التوكلُ على الله في منهج الأنبياء. أخذٌ بالأسباب في بسالةٍ وصِدقٍ، واعتمادٌ على الله تقوى به النفس، ولا تركنُ إلى هوان أو ضعف، واستجابةٌ صادقةٌ لله وللرسول تحيا بها النفس، وتعود بأجرٍ وفضلٍ ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ** ﴾ [2]

* * *

(١) آل عمران : ١٧٢- ١٧٤.

(٢) الطلاق : من الآية ٣.

٢- الصدق في حياة الأنبياء :

إن الأنبياء - وهم دُعَاةٌ إلى الله تعالى - يُعلِّمون الناسَ الصدق، ويدعونهم إليه، ويُبيِّنون لهم آثاره ونتائجه في دُنياهم وأُخراهم.

وقد قال النبي ﷺ: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا »[١]

إن الأنبياء دُعَاةُ صِدقٍ وهم صادقون، لا يرى الناسُ منهم خلافَ ما يقولون، ولا يقولون ما لا يفعلون.

والصدقُ طمأنينةٌ ونجاةٌ، والنَّاسُ قد يُخطئون، و « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ »[٢]، ولكنْ على الناسِ أن يصدُقوا دائماً، ولا يسلكوا بأنفسهم مَسْلَكَ الكذب في خطأ أو صواب.

إن أخطأوا صدقوا في توبتهم وإنابتهم، وذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.

وإن أصابوا صدقوا، فأسندوا الفضلَ لله الذي أعانهم ووفَّقهم، وهداهم إلى صراط مستقيم « يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[٣]

وما كانت الحياةُ، وما كان الابتلاءُ فيها إلاّ لِيَعْلَم اللهُ الذين صدقوا، ويعلمَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجة.

(٣) رواه مسلم.

الكاذبين. وهو أعلم بهم وبما يُسرّون وما يُعلنون، والابتلاء هو الذي يكشفهم أمام أنفسهم، ويميِّزُ صفوفَهم ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (١)

وقد جعل الله ما على الأرض زينةً لها ليبلُوا الناس أيُّهم أحسنُ عملاً ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ (٢)

زينةٌ يُبتلى بها ولا تبقى، والإنسان إمَّا مفتونٌ بها، مأخوذٌ بزهرتها، يُسئ ولا يُحسنُ، ويجحدُ ولا يشكرُ.. وإمَّا مُدركٌ لها، يعلمُ أنها متاع، وأن الآخرةَ هي دارُ القرار، فيُخضعُ دُنياه لمرضاتِ ربِّه، فيُحسنُ ولا يُسئ، ويشكرُ ولا يكفُر.

هذا قد سَلَكَ مسلك الصدق، فهو مع الصادقين، وذاك قد اتَّبع السُّبل، فهو مع الكاذبين ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ (٣)

وخلق الله الموتَ والحياةَ ليبلُوا الناسَ أيُّهُمْ أحسَنُ عملاً ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٤)

* * *

والصِّدْقُ مأمورٌ به في الأحوال كلِّها.. في السِّر والعَلَن، والعُسر واليُسر، فيما

---

(١) العنكبوت : ١- ٣.

(٢) الكهف : ٧.

(٣) الإنسان : ٢،٣.

(٤) الملك : ٢.

تُخفيه الصدور وما تُبديه، فيما تنطقُ به الألْسِنَةُ، وما تكسبُه الجوارح، فيما يكون فيه الإنسان، مع نفسه، وفي معاملته مع غيره.

صِدْقٌ في كل مجالٍ، وفي جميعِ الأحوال.. في الإيمان، وفي الإنفاق، وفي أداء الصلاة، وفي إيتاء الزكاة، وفي الوفاء بالعهد، في البأساء والضراء وحينَ البأس..

صدقٌ في المواطن كلِّها، ينبعُ من حُسن الصلة بالله، وحُسن التوكل عليه، ومن الإشفاق من خشيته، وصِدق الإيمان بآياته.

وذاك هو سبيل البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة.

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (١)

إن أهل الصدق يُصدِّقون الله ورسوله ولا يُكذِّبون، وفي الشدائد يُردِّدون إيماناً وتسليماً ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) البقرة : ١٧٧.

(٢) الأحزاب : ٢٢، ٢٣.

هكذا يكون الصدق حينُ يبتلى الإنسان ويُمتحن. لا يَعْرِفُ أَهلُه غيرَ بابِ الله باباً، وهم موقنون أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، ومَن أيقن بذلك لزم الصدق، وثبت عليه.

وهذا ما كان من كعبِ بن مالكٍ ﷺ، وهو أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة "تبوك"، وتاب الله عليهم؛ لأنهم لزموا الصدق.

يقول كعبٌ - وقد بُشِّر بتوبة الله عليه -: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا - أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ.. وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا. إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾** ﴾ »[1]

هكذا - في أحداثٍ حيَّةٍ - نرى النتائج.. نتائج الصدق لِمَنْ صدقوا، ونتائجَ الكذب فيمن كذبوا.. هؤلاء باءوا بسَخَطِ الله وعذابه، وأولئك فازوا برضى الله ورحمته، وسبقت لهم البُشرى في دُنياهم، وعلا ذِكرُهم، وشاع فضلُهم، وامتدَّ مع

(١) التوبة : ٩٥، ٩٦، والحديث رواه مسلم.

الأجيال محفوظاً في قرآن يُتلى، فيه تبصرة وذكرى.

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [(١)]

* * *

الإنسان – في منهج الأنبياء – يؤمر بالصدق، وللصدق آثاره ونتائجه في دُنيا الناس وآخرهم، ويُحذَّر من الكذب، وللكذب آثاره ونتائجه في دُنيا الناس وآخرهم.

قال النبي ﷺ: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّة، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا »[(٢)]

نتائج في الحالين ظاهرةٌ بيِّنة. نتائج للصدق تُرَى في دُنيا الناس، وتكون في آخرهم. ونتائج للكذب تُرى في حياة الناس، وتكون في آخرهم.

وبيان الأنبياء – وهو وحي من الله – يُري الناس ما هم صائرون إليه ومنتهون عنده، يُريهم ما كسبوا وما اكتسبوا؛ ليُدركوا النتائج، ويحذروا العواقب ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [(٣)]

---

(١) التوبة : ١١٨، ١١٩.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الأنعام : ١٠٤.

روي الترمذي عن الحسنِ بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قـال: « حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ »(١)

هكذا يكون المؤمن المتَّبعُ لهدي الأنبياء.. يترك ما يشكُّ في حلِّه، ويرتابُ في أمره، ولا يدخل مداخلَ الريبة ابتغاءَ منفعةٍ عاجلة، أو لذَّةٍ طارئة، وينأى بنفسه عن الكذب في جميع أمره؛ لأن مَن تعاطى الكذبَ ضلَّ وفَجَرَ، وفقد إيمانه، وخسر دُنياه وآخرته ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(٢)

وروى الإمام أحمد، عن سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُب ﷺ قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لأَصْحَابِه: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا ؟ قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي عَلَيْهِ بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ (٣) بِهَا رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الْحَجَرُ (٤) هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ يَأْخُذُهُ، فَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا هَذَان ؟ قَالَ: قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَاهُ

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) النحل : ١٠٥.

(٣) فَيَثْلَغ : أَيْ يَشْدَخُهُ، وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَة جَرِير " فَيَشْدَخ " وَالشَّدْخُ كَسْر الشَّيْء الأَجْوَف.

(٤) فَيَتَدَهْدَه الْحَجَر : الْمُرَاد أَنَّهُ دَفَعَهُ مِنْ عُلْو إِلَى أَسْفَل، وَتَدَهْدَهَ إِذَا انْحَطَّ.

إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ. قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ الأَوَّلُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ الْمَرَّةَ الأُولَى.

وأخذا يُرياه إلى أن قال لهما: « فإني رأيت الليلة عجباً؟ فما هذا الذي رأيتُ ؟ قَالا لي: إِنَّا سَنُخْبِرُكَ. أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنْ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ » [1]

تلك هي النتيجة يُبلّغها الأنبياء للناس، ويَذكُرُها خاتمُهم ﷺ؛ لتكون عبرةً لمن يعتبر، وليعلم الناس نتائج أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [2]

* * *

أخي المسلم: الصدق طمأنينة، أنْعِم به في نفس صاحبه وفي ثقة الناس من حوله.. أنْعِم به في حقيقته وفي آثاره ونتائجه.. إنه يُعلي شأنَ صاحبه، وبه تُعصم النفسُ من الفسوق والفجور، وتَسْلَمُ من سُوء العاقبة.

والصادق أبيُّ النفس، طاهرُ الثوب، لا يدخل في رِيبة، ولا يتعامل بكذب. ومَن عرف ربَّه خشيه، ومَن أيقنَ بعلمه صدق في ظاهرة وباطنه، وسرِّه وعَلَنه، ويُسره وعُسره، وكان مع الصادقين في جميع أمره.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) الزلزلة : ٧، ٨.

أخي المسلم: بالصدق ينعَمُ الناس بحُسن الصلات، ويفوزون برضا الله. الصدق في كل مجال وفي جميع الأحوال.. وهذا ما دعا إليه الأنبياءُ، وما تَسُرُّهم نتائجه وعاقبته.

يقول كعب ﷺ وهو يصفُ حالَه قبل مجيء البُشرى إليه:

« فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ، بِأَعْلَى صَوْتِه: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِك، أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّه عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّه مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا؛ يُهَنِّونِي بِالتَّوْبَةِ.... ثم قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّه ؟ قَالَ: لا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه. وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ » [1]

سرورٌ برحمة الله، وتكريمٌ لِمَن صدقوا.. وهذا ما دعا إليه الأنبياءُ، وجاء به مِنْ الله نداءٌ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [2]

* * *

(١) رواه مسلم.

(٢) التوبة : ١١٩.

٣- الإحسان في حياة الأنبياء:

في منهج الأنبياء دعوةٌ إلى الإحسان.

والإحسانُ في مفهومه التعبُّدي «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وهذا المفهوم مع اشتماله على صِدق الإخلاص لله، يتضمَّنُ إتقانَ العمل وإحسانه.

والله تعالى قد كتب الإحسانَ على كل شيء، وضَمِنَ أجرَ صاحبه.

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ ﴾ (١)

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢)

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ ﴾ (٣)

وكفى المحسنين شرفاً أن يكون لهم من الله الهداية والتوفيق، وأن يفوزوا بمعيَّته سبحانه.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ (٤)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ (٥)

---

(١) الكهف: من الآية ٣٠.

(٢) يونس: من الآية ٢٦.

(٣) النحل: من الآية ٣٠.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) النحل: ١٢٨.

وإذا كان الإحسان مفروضاً في كل شيء، فعلى المؤمن أن يراقبَ ربَّه، وأن يُحسن عمله؛ لأنه محاسبٌ بما عمل، والله ﷻ لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بِمَن أحسن ومَن أساء.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: الله يراك ويَسْمَعك، فأحسن قولك وعملَك، وسِرَّك وعَلَنك، ولا تُرائي الناس فتُحسنَ حين يَرَوْك، وتتركَ الإحسانَ بعد أن يَبْعُدَ رقيبُهم عنك؛ فإن عينَ الله تراقبك في خَلْوَتك وجَلْوَتك، ولا تخفى عليه منك خافية ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

* * *

إن مَن تدبر القرآنَ عرف ما للإحسان من فضلٍ، وما أعدَّ الله للمحسنين من أجر.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ

(١) يونس : ٦١.

(٢) المجادلة : من الآية ٧.

يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

ونحن نُتابعُ منهجَ الأنبياء في القرآن الكريم علينا أن نتدبَّر ما قال الله عنهم؛ لنقتدي بهم، ونهتديَ بهداهم.

ففي نوح عليه السلام نقرأ قول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

وفي إبراهيم عليه السلام نقرأ - وقد قصَّ رؤياه على ابنه -: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٣)

وفي موسى وهارون - عليهما السلام - نقرأ قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (٤)

وفي إلياس عليه السلام نقرأ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (٥)

* * *

(١) الذرايات : ١٥-١٩.
(٢) الصافات : ٧٩، ٨٠.
(٣) الصافات : ١٠٢-١٠٥.
(٤) الصافات : ١٢٠، ١٢١.
(٥) الصافات : ١٣٠، ١٣١.

إن الإحسان هو منهج سلفنا الصالح في حياتهم كلِّها، وهم يقتدون بأنبياء الله ورسله، ويهتدون بهداهم.

ومن هنا كان تفوُّقهم، وكانوا - بإحسانهم - أُسوةً لغيرهم.. حسُنت أخلاقهم، وحسُنت نيَّاتهم، وحسُنت أعمالهم، فأحبَّهم الله، وآتاهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر.

إن تكلَّموا لم يقولوا إلا حُسناً، وإن وعدوا صدقوا، وإن ائتُمِنوا وفُوا، وإن عملوا أخلصوا وأتقنوا.

إنْ مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فأبصروا.. وأَتْبَعُوا السيئةَ الحسنة، واتقوا ربَّهم، وخالَقوا الناس بخُلق حسن.

حفظوا الله في جميع أمورهم، فحفظهم الله، واستعانوا به في جميع شئونهم فأعانهم. لم يَضْعُفُوا، ولم يَستكينوا.. ولم يطلبوا ما عند الله بأماني المغفرة، بل طلبوا ما عنده بما أمرهم به من عملٍ وإحسانٍ وتُقيً وصبرٍ..

أخذوا بالأسباب، ولم يركنوا إليها، فإن ظفروا بنصرٍ أسندوا الفضل لربِّهم، وإنْ غَابَ عنهم النَّصرُ اتهموا أنفسهم، فَأصلحوا وأحسنوا، وجاهدوا وصدقوا.

لم تُقعدهم جراحاتُهم عن حُسن استجابتهم لله وللرسول، ولم تَشغلْهم الرغائب عن العواقب، ولم يكن تنافُسهم على المغانم، بل على المكارم..

كانوا محسنين في سَرَّائهم وضرَّاهم، ويُسرهم وعُسرهم، وسِلمهم وحربهم، كما عَلَّمهم نبيُّهم ﷺ، وقد كَانَ خُلُقُه الْقُرآن.

أرأيت أنَّ الإحسان منهج الأنبياء، وأنهم جميعاً كانوا محسنين، وأن من سلك سبيلهم، واقتدى بهُداهم، عليه أن يُحسن في كل شيء.. في قوله وعمله، ومعاملته مع غيره؛ فإن الله قد كتب الإحسان على كل شيء.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) العنكبوت : ٦٩.

رابعاً : الدعوة إلى القيام بالقسط

إن منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله - كما جاء في القرآن الكريم - جديرٌ أن يُتدبَّرَ، لا من الدُّعاة فحسب، بل من الناس أجمعين؛ فالله ﷻ قد أرسل الرُّسُل بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزان؛ ليقومَ الناسُ بالقسط، وأنزل الأسبابَ التي تُعينُ الناسَ على نُصْرةِ الحق، وإقامةِ العدل. وفي ذلك ما فيه من مصلحةٍ للناس أجمعين.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

إنَّ قِيامَ الناس بالقسط غايةٌ عَمِلَ لها الأنبياءُ، وبُعثوا لتحقيقها ودعوةِ الناس إليها

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٢)

* * *

والعدلُ الذي ينشدُهُ الأنبياءُ يقوم على أُسسٍ تربوية وفرائضَ عملية، يؤمنُ بها الفردُ، ويتعاونُ على تحقيقها المجتمعُ، ويتماسكُ بها بُنيانُ الدولةِ أو الأمة.

وهذه الأُسس والفرائضُ تُعينُ الفردَ على أن يُحقِّقَ العدل - أوَّلاً - في ذات

(١) الحديد : ٢٥.

(٢) النساء : ١٣٥.

نفسه، بين فضائل رُوحه ومطالب جسده، بلا مَيْلٍ أو جَوْرٍ.

وهو السبيل لتحقيقه في معاملته مع غيره، ومَن فاتَهُ العدلُ مع نفسه كان عاجزًا عن تحقيق ذلك مع غيره.

من هُنا كان منهجُ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله مُوجَّهًا لتربية الإنسان، وهدايته للتي هي أقوم، على بصيرةٍ ومعرفةٍ، وحكمةٍ ورُشد.

إنَّه مِنَ الله، والله أعلمُ بما يُصلِحُ عبادَه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

ويُخطئ مَن يظنُّ أنَّ منهجَ الأنبياء يُمكنُ أن يُستَغْنَى عنه في هداية الناسِ إلى الحقِّ وقيامِهم بالقسط.. إن الناسَ لو تُركوا لأنفسهم - دون هُداةٍ من الله يرشدونهم - لأفسدوا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ! فإن مَن يُشرِّعُ العدلَ للناس جميعًا لا بُدَّ أن يكونَ غنيًا عنهم، يُحيط عِلماً بجميع أحوالهم، والله - وحده - هو الغنيُّ عن العالمين، وهو بكُلِّ شيءٍ عليم.

والمتأملُ في قوانين البشر يُدركُ ما فيها من عَجْزٍ، وأنانية، وقُصُورٍ، إن صَلُحت لناسٍ لا تصْلُحُ لغيرهم، والنَّاس - في كثيرٍ - ترتبطُ دوافعُهم بمنافعهم، ولا تَسَلْ عمَّا يقعُ في القوانين من تضاربٍ وتناقضٍ إذا اختلفت المنافعُ، وتباينت الدوافع.

فمَنْ ذا الذي يُشرِّعُ للناس قواعدَ الحقِّ والعدل، ولكُلٍّ منهم مصالحُه وهواه ؟!

أليسَ من مصلحتهم - جميعاً - أن تكونَ كلمةُ الحقِّ صادرةً من ربِّهم.. وربُّ العالمين - سُبْحَانَه - مُبرَّأٌ من اتباع هوىً، ومن تأثير حاجةٍ أو مصلحة، مُنـــزهٌ عن قُصورِ عِلم وإحاطة.

---

(١) الملك : ١٤.

إن ما يفعله الناسُ - عندَ خصامهم - أن يميلوا إلى جهة مُحايدة تحكمُ بينهم، لا يكون منها ذو نسبٍ أو قرابةٍ، أو يكونُ لها مصلحةٌ عند أحد المتخاصِمَين (ولله المثل الأعلى).

والله غنيٌّ عن العالمين، وليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: « يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[1]

بذلك تستقيمُ تربيةُ الإنسان، بالعقيدة الصحيحة، بحُسْنِ الاستجابة لله وللرسول، فيكون قيامُه بالقسط عبادةً لربِّه، وعدْلُه - في القول والعمل - قُرْبَى لخالقه، وهو يُوقنُ أنه مُؤاخَذٌ بما يقولُ، مُجازَى بما عمل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[2]

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠ ﴾[3]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الزلزلة : ٧، ٨.

(٣) آل عمران : ٣٠.

إن الله أنزلَ الكتابَ بالحقِّ ليحْكُمَ به بين الخَلْقِ، وذاك من مقتضيات الحقِّ، أن يكون حَكَماً بين الناس، ولا يكونَ غيرُه، ومصالحُ الناس لا تستقيمُ، بل لا تتحققُ إلا بِحُكْمِ الحقِّ، والحاكم بما أنزل الله - وهو الحقُّ - مُتَّبِعٌ يحكُمُ بما أراه الله، لا بما يُمليه هواه، واجتهادُ المجتهد لتطبيق حُكم الله هو اتباعٌ للحقِّ يجعلُ الله له به فُرقاناً ونُورًا ومغفرةً وأجرًا، ويهديه إلى سواء السبيل.

إلى ذلك دعا الأنبياءُ وأُمروا به.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

* * *

الأُسس التي يقوم عليها العدل:

قُلنا: إن العدلَ الذي ينشُدُه الأنبياءُ يقومُ على أُسسٍ تربوية، وفرائضَ عمليَّة، يؤمنُ بها الفردُ، ويتعاون على تحقيقها المجتمعُ، ويتماسكُ بها بُنيانُ الدولة والأمة.

والآن نَوَدُّ أن نتدبَّرَ هذه الأُسُس التي يقومُ عليها العدلُ في منهج الأنبياء، وهم يدعون الناسَ إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) النساء : ١٠٥.

(٢) المائدة : ٤٩.

إنَّ خشيةَ الإنسان من ربِّه، وإيمانَه بحسابه وجزائه أصْلٌ في تربية الإنسان الذي يُطلبُ منه أن يقومَ بالقسط، ولذا فإنك ترى النداءَ لأهل الإيمان - أن يعملوا بمقتضى إيمانهم - كثيرًا في القرآن الكريم؛ لأن الإيمانَ هو الدَّافعُ لهم في تحقيق ما أُمِرُوا به، واجتنابِ ما نُهوا عنه.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

والأنبياءُ جميعًا يُطالبونَ الناسَ بتحصيل حقيقةِ الإيمان قبل مُطالبتهم بما يترتَّبُ عليه.

إن مَنْ يعبُدُ ربَّه ويخشاه تَطيبُ نفسُهُ بطاعته وتحقيق أمْره، وأنت تقرأ القرآنَ تراهم يبدءون - أوَّلاً - بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحدَهُ لا شريك له، وفي ذلك ما فيه من تربية النفسِ وإعدادها للقيام بالقسط.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

ذَاكَ هو الأصلُ في تربية الإنسانِ وإعدادِهِ للقيامِ بالقِسْط، أن يعبدَ ربَّهُ، وأن يخشى حسابَهُ وجزاءَهُ.

---

(١) النساء : ١٣٥.

(٢) الأعراف : ٨٥.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ (١)

بذا يستطيعُ الإنسانُ أن يُقيمَ العدلَ دون أن تَغلبَهُ المؤثراتُ الّتي تميلُ به من حُبٍّ للنفسِ أو الأهل، ودون خُضُوعٍ للهوى الذي يُضِلُّ الناسَ عن الحقِّ؛ إذ لا شيءَ يُعينُ الإنسانَ على تغليب أَمْرِ الله على هواه، كَصِدْقِ إخلاصِهِ لله، وخشيتِهِ منه..

فمَنْ ذا الذي يُنْصِفُ عدوًّا من نفسه إنْ لم يكن له إيمان بربِّه ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

ومَنْ فاتَتْهُ تقوى الله قد لا يكون منه العدلُ في قولٍ أو فعلٍ، ومنهجُ الأنبياءِ يُطالبُ الناسَ بالعدلِ في كُلِّ شيءٍ، وتقوى الله يُؤمَرُ بها الإنسانُ حيثُ كان.

فدوافعُ العدلِ مُلازمة للإنسان في سرِّه وعَلَنِه، ومَنْ كان دافعُهُ تقوى الله عَدَلَ مع العدوِّ والصَّديق، والقريبِ والبعيد ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) هود : ٨٤ - ٨٦.

(٢) المائدة : ٨.

(٣) آل عمران : من الآية ١٠١.

والحُكْمُ بين الناس - وهو يُقامُ بمقتضى الإيمان وبدافعٍ منه - يتنـــزَّهُ عن المؤثراتِ التي تميلُ بالناسِ، من حُبِّهم لأنفسهم، أو مَيْلِهم لذوي قُربَاهُم، أو انعطافهم لصديقٍ، وجفائهم لعدوٍّ.

والله ﷻ يأمرُ المؤمنين أن يكونوا قوَّامينَ بالقسْط، غيرَ متَّبعينَ لهوىَ أنفسهم أو أهواءِ غيرهم، ومَن تخلَّص من هوى نفسه كان قادرًا - بعَوْنِ الله - أن يتخلَّص من هوى غيره.

* * *

والتحذيرُ من المَيْلِ، أو اتباع الهوى - في تحقيق العدل - لا يُلْقَى على الناسِ موعظةً بلا حساب عليه أو جزاءٍ لمَنْ أحسنَ أو أساء، بل لا بُدَّ من حسابٍ على ما أُمِرَ الناسُ به، ودُعُوا إليه، حَفِظُوا أم ضيَّعُوا ؟

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

إن العدلَ في منهج الأنبياء محكومٌ بضوابطَ ودوافعَ، تجعل الإنسانَ آمناً في الأخْذِ به، والرِّضَى عنه، والناسُ جميعاً في ساحة العدلِ سواءٌ، لا فَرْقَ بين قريب وبعيد، وعدوٍ وصديق ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) الأنبياء : ٤٧.

(٢) المجادلة : ٦.

(٣) المائدة : من الآية ٨.

أخي المسلم: إن قيامَ الناس بالقسط يرتبط بمنهجٍ قويم، لا ميلَ فيه ولا عوج، بيِّنٍ واضحٍ، لا إبهام فيه ولا غموض.. ومَن تدبَّر قولَ الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [1] عَرَفَ المنهج، واتبع الطريق، وتجنَّب السُّبُلَ المُهلكة الضَّالَّة التي تميلُ بالناس عن الحق، وتُبعدهم عن الصراط المستقيم ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2]

إن قيام الناس بالقسط يقترنُ بما جاء به الأنبياءُ، ولا ينفك عنه، فالشَّرعُ ما شَرَعَ الله، والهُدَى هُدَاه ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [3]

الشَّرعُ ما شَرَعَ الله، ولا إيمانَ بلا خضوع لأمْرِه، ورضىً بحُكمه، واتباعٍ لرُسُله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [4]

---

(١) الحديد : ٢٥.

(٢) الأنعام : ١٥٣.

(٣) المائدة : ٤٩، ٥٠.

(٤) النساء : ٦٥.

والقيام بالقسط - في دُنيا الناس - لا بُدَّ له من قوةٍ عادلة تردُّ البغي، وتدفع الظلم، وتنصر المظلوم حيث كان، قريبًا كان أم بعيدًا، عدوًّا أم صديقاً.. ومن أجل ذلك أنزل الله الأسباب التي جعلها عونًا لنُصرةَ الحق، وإقامة العدل ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

وإذا كان الله ﷻ قد أنزل مع المنهج الأسبابَ التي تُعين على تحقيقه، فإن الناس مُمْتَحَنُونَ بهذا وذاك.

مُمْتَحَنُونَ بالمنهج، أيتبعون أمْ يُعرضون؟!

مُمْتَحَنُونَ بالأسباب.. أيُخْضِعُونها لنَصْر الله ورُسِله ؟! أم يجعلونها لأهوائهم، وطلب العُلو في الأرض والفساد ؟!

هل يَقْصُرُونها على الأدنى ؟ أم يطلبون بها الأبقى، وينشدون الفردوس الأعلى ؟

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

إنه الامتحان للناس، والله غني عن العالمين.

ونصرُ الله في اتِّباع ما أمر به، ودعا إليه، وفيه مصلحتهم، وفيه نجاتهم، ولن يستطيعَ أحدٌ أن ينصر الله في معركة حتى ينصره في نفسه، بتغليب أمره على هواه. وبذا يُرجى نصرُه، ويُطلب رضاه.

﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ

(١) الحديد : من الآية ٢٥.

﴿ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ (١)

إن نَصْرَ الله رُسُله في اتباع المنهج الذي أرسل اللهُ به الرسل، وأنزل الكتاب والميزان.

أخي المسلم: من فضل الله على الناس أنْ أرسل الرُّسل بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الأسباب التي تُعين على نُصرة الحق وإقامة العدل، وجعل امتحان الناس في ذلك، كما جعل جزاءه في الآخرة على عملهم في الدنيا.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (٢)

ومن تدبَّر الأمر عَرَفَ أنَّ في نَصر الله ورسله تحقيقًا للخير، وإقامةً للعدل، وإشاعةً للبرِّ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥ ﴾

علمٌ يترتب عليه جزاء، وعملٌ من الناس تَحسُن به العاقبةُ أو تسُوء. والناس هم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فما كلَّفهم به لمصلحتهم، وما دعاهم إليه لفوزهم ونجاتهم.

إن منهج الأنبياء دعوةٌ إلى العمل لنُصرة الحق وإقامة العدل، وإخضاع الأسباب لمرضاة الله، لا لهوى النفس ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ (٣)

---

(١) محمد : من الآية ٤، والآيات ٥، ٦، ٧ بتمامها.

(٢) الزلزلة : ٧، ٨.

(٣) الأنعام : من الآية ٩٠.

خامساً : ارتباط الإيمان بالعمل الصالح

إنَّ الأنبياءَ يُخاطِبون الناسَ بما لا يَلْتَبِسُ عليهم، أو يَبْعُدُ عن فَهمهم وفِطرتهم.

إنَّهم يدعون إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريك له ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (١)

والناسُ لا يجحدونَ ما للرَّبِّ من فَضْلٍ في خَلْقٍ ورِزْقٍ، وما لَهُ من قُدرةٍ في حياةٍ أو موتٍ، فلا يَصْعُبُ عليهم أن يُدركوا ما لَهُ من حقٍّ في صِدْقِ عبادةٍ، وإخلاصِ قَصْدٍ.

فهُم إنْ طُولِبُوا بتقواه يعلمون أنه جديرٌ أنْ يُتَّقَى، وإن أُمِروا أن يعبدوه مُخلصينَ له الدِّين.. يعلمون أنه جديرٌ أن يُعْبَدَ.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ

---

(١) الأعراف : ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود : ٥٠،٦١، ٨٤، المؤمنون : ٢٣، ٣٢.

(٢) يونس : ٣١، ٣٢.

شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

حقائق يُخاطَبُ بها الناسُ ويرونها في الواقعِ المُشَاهَد، وهي ذاتُ دَلالةٍ فيما يُطالَبونَ به من إيمانٍ واستقامةٍ، وتُقَيً وخشيةٍ.

خطابٌ يُنْشِئُ علماً، ويُوقِظُ فِكْراً، ويُحْيِي قَلباً، ويَزِيدُ إيماناً.

والحقائقُ التي يذكرها الأنبياءُ - وهم يُوحَى إليهم - تتَّصل بحياةِ الناس ومصائِرِهم، وهي لا تَغْرُبُ عن واقعٍ، ولا تَنْأى عن نَظَرٍ وفِكْرٍ.. ولا يجحدُها إلاَّ من عَمِيَتْ بصيرتُهُ، وحقَّتْ ضلالتُهُ، واتخذَ إلهه هوَاه، فما تُغنيه الآياتُ، ولا تنفعُهُ البيِّناتُ.

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

إنَّ منهجَ الأنبياءِ في الإصلاحِ يقومُ على أساسٍ من معرفةِ الله، وإخلاصِ الدِّينِ لهُ، فهم لا يأمرونَ بمعروفٍ وينْهَوْنَ عن مُنْكَرٍ مُجَرَّدٍ عن صِدْقِ إيمان، وإخلاصِ عبادة، وإنما يدعون إلى عبادةِ الله - أولاً - والتوجُّهِ بالأعمال إليه ثانياً؛ لِيَكُفَّ الإنسانُ شرَّهُ عن غيرِهِ، ويُقَدِّم خيرَهُ.

فارتباط الإيمانِ بالعمل، والعبادةِ بالسلوك أصْلٌ في منهج الأنبياء.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) المؤمنون : ٨٤-٨٩.

(٢) الجاثية : ٢٣

عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

دعوةٌ إلى عبادةِ الله - أولاً - وعدمِ الإشراكِ به تؤدِّي إلى الاستقامةِ والعدلِ في المعاملة، وتُحقِّقُ في النفس رغْبَةً ورَهْبَةً.

رغبة في مرضاتِ الله.. ورهبة من مخالفته ومعصيته.

ويُخطئُ مَنْ يظُنُّ أنَّ الإصلاحَ يكون بمعْزَلٍ عن مراقبةِ الله وخشيتِه، وأنَّ الكَفَّ عن الفسادِ يمكنُ أن يكونَ بغيرِ معرفةِ الله، واليقينِ بحسابِه وجزائِه !!

إنَّ منهجَ الأنبياء يُعرِّفُكَ بربِّكَ، ويَهديكَ إليه؛ لتتحقَّقَ الخشيةُ التي تجعلك تَكُفُّ عن الشرِّ وتفعلُ الخيرَ؛ ابتغاءَ مرضاته، وتُمسكُ عمَّا يُبْطِلُ عملَكَ مِن مَنٍّ وأذَى، أو يُحبِطه من شِرْكٍ ورياء ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

ولَمْ نَرَ - في منهجِ نبيٍّ من الأنبيـــاء - دعوةً إلى الإصلاحِ غـــير مُقترِنَةٍ بقوله: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ وذلك لأنَّ الإصلاحَ الذي لا يقومُ على هذا الأصلِ يحتاجُ إلى إصلاحٍ، ولأنَّ النفوسَ التي لا تتربى على عبادةِ الله ومعرفتِه وخشيتِه، قَلَّمَا تَصْدُقُ في اتِّباعِ أمْرٍ، واجتنابِ نَهْيٍ.

وشتَّانَ ما بين أخلاقٍ وأخلاقٍ..

أخلاقٍ يكونُ دافعُهَا المنفعة، فتتغير بتغيُّرها.. وأخلاقٍ تقومُ على أساسٍ من معرفةِ الله وخشيتِه، فلا تتغيرُ بتغير الأحوال، ولا تتباينُ وتختلف من حالٍ إلى حال.

---

(١) هود : ٨٤، ٨٥.

(٢) النازعات : ١٩.

فالصِّدْقُ صِدْقٌ مع القريب والبعيد، والعدلُ عَدْلٌ مع العدوِ والصَّديق، والحقُّ هو الحقُّ في جميع الأحوال، ولجميعِ الناس، دون نَظَرٍ لمَوَدَّةٍ أو شَنَآنٍ.

وهذا نداءُ الله لأهلِ الإيمان ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [1]

ذاكَ هو منهجُ الأنبياء، وهذا هو نداءُ الله لَمَنْ آمنَ به واستجابَ له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [2]

* * *

(١) النساء : ١٣٥.

(٢) المائدة : ٨.

سادساً: الجمع بين التبشير والإنذار

في منهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله تَبْشيرٌ وإنذارٌ.

والتَبْشيرُ: إخبارٌ فيه سرورٌ، والإنذار: إخْبَارٌ فيه تخويفٌ.

والله ﷻ قد أرسل رُسُلَه مبشرين ومنذرين ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [1]

ولكن بأيِّ شيءٍ يُبشِّرون ؟ ومن أيِّ شيءٍ يُخوِّفون ويُنذِرون ؟

فلنتدبر ما جاء في القرآن الكريم..

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [2]

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [3]

---

(١) النساء : ١٦٥.

(٢) الأنعام : ٤٨، ٤٩.

(٣) الإسراء : ٩، ١٠.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ (١)

الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المُبَشَّرُون بأن: لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، وبأنٌ لهم أجرًا كبيراً، وبأن لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبداً.

والمكذّبون بآيات الله، والّذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين اتخذوا لله ولدًا، هم الذين يُنْذِرهم الرسلُ بما أعدَّ الله لهم من عذابٍ أليم.

ومَن تدبَّر صفات هؤلاء وأولئك عَرَف طريقَ النجاة، وهُدِيَ إلى صراط مستقيم، وعلم أن ما يُبشَّرُ به المؤمنون، وما يُنذَرُ به المكذّبون الضالون، ليس بمعزلٍ عن أيِّ شأنٍ من شئون حياتهم؛ فإن لكل عملٍ نتيجته، ولكل أمرٍ عاقبته.. والخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، والفائزون هم الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الكهف : ١- ٤.

(٢) الزمر : ١٥- ١٨.

صفاتُ وأعمالٌ - يُبَشَّرُ أصحابُها أو يُنذَرون - لها تأثيرُها في صلات الناس وروابطهم، ولها أثرها في سلوكهم وأعمالهم، وشتَّان ما بين مُتَّبعٍ لباطلٍ، مؤثرٍ لهواه، وبين مُوفٍّى بالحق، مُتَّبِع له، يجاهدُ في سبيله، ويرجو رحمة ربِّه.

والناس في أعمالِ الخير والشر يتفاوتون، وعند الله لا يستوون. ومن الناس مَن يخلُدُ إلى الأرض، ويتَّبع هواه، ومنهم مَن يَنشدُ الفردوس الأعلى، ويجاهدُ لينالها، ويصيبها بفضل الله..

وهؤلاء وأولئك تقرأُ عنهم في كتاب الله، ونُبلَّغ بنتائج أعمالهم قبل أن تكون، فلا تبقى لأحدٍ حُجَّة، ولا لِمُضَيِّعٍ معذرة.. ومَن طلب الفوزَ بالأماني، أو ابتغاه في غير ما حدَّد الله، فقد ضلَّ السبيل.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

ومَن طلب الأجر من الله أخلصَ القصدَ له، ومَن ابتغى الفوزَ عنده عرف الطريق إليه « وما عند الله لا يُطلَبُ إلاَّ بطاعته »، ومَن رَغب في السلعة الغالية قدَّم ثمَنها، وطلبها ممَّن يملكها.. وسلعةُ الله غالية، « وسِلعةُ الله الجنة ».

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ

(١) التوبة : ٢٠-٢٢.

بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (١)

أخي المسلم:

أرأيت ما يُبشِّرُ به الأنبياء ومَن يبشِّرون ؟

ما رأيتَ أن العاقبةَ لا تكون إلا لِمَنْ سلك سبيلَهم، واقتدى بهُداهم، فاحرص على أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٢)

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ (٣)

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً منهم (آمين).

* * *

(١) التوبة : ١١١، ١١٢.

(٢) فصلت : ٣٠.

(٣) الحديد : ١٢.

سابعاً : تحديد قيمة الأشياء

إن منهج الأنبياء في الدَّعْوَةِ إلى الله - وهو يقوم على أساس التوحيد - يُهيئ للنفس أسبابَ طُهرها وعِزِّها، ولا يجعلها أسيرةً لأعراض الحياة، بل يجعل أعراضَ الحياة في خدمة غايتها، وتحقيق فضائلها وأخلاقها.

إن هذا المنهج يُحدِّد قِيَمَ الأشياء؛ ليكون الإنسان على بيِّنةٍ وهو يختارُ لنفسه، أيكون هواه مع الله، أم مع غيره.. أيُؤثِر الحياةَ الدنيا، أم ينشدُ الباقيات الصالحات.

ومنهج الأنبياء - وهو يُحدِّدُ قِيَمَ الأشياء - يُري الإنسانَ نتائج ما يُؤثِره ويعملُ له.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [1]

بيانٌ لقيمةِ الأشياء، ما يبقى منها وما يفنى، ما ينْعَمُ به الإنسان وما يشقى، فما

(١) آل عمران : ١٤- ١٧.

زُيِّنَ للناس قد ابتُلوا به، وهو زينةٌ لا تدوم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾ (١)

إن متاعَ الحياة الدنيا ما جُعل لكي يبقى الإنسان فيه، أو يَبْقَى له، وإنما ليكون - بجانب المتاع - عوناً له على معرفة ربِّه وخشيته ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾، فليس ما يملكه الإنسانُ في الدنيا، أو يُعطى له هو خاتمةَ المطاف، أو منتهى الخير والعطاء.. لا، هناك ما هو خيرٌ من كل ما زُيِّنَ للناس، وهو ما عند الله ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (٢)

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ﴾

وهذه الموازنة - بل هذا البيان - له دَلالته في حَثِّ الإنسان على معرفة الأشياء، والمبادرةِ إلى ما هو خير ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (٣)

---

(١) الكهف : ٧، ٨.

(٢) القصص : من الآية ٦٠.

(٣) المؤمنون : ٥٥- ٦١.

ولْنتدبَّر ما يترتب على حُسن اختيار الإنسان لنفسه وإيثاره ما عند ربِّه.

إن ذلك يُحقِّق لدُنيا الناس أبرَّ الصفات وأكرمَ الأعمال؛ فإن ما عند الله إنما يُنالُ بما حدَّد من صفاتٍ، وما هيأ من أسبابٍ.

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

صفاتٌ لمن ينالونَ رحمة الله، ويدخلون جناته.. صفات تسلم بها دُنيا الناس من البغي والفساد.. صفات يكون بها الأمن، ويتحقق التنافس على الخير ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

أين تكون هذه الصفات ؟

أتكون في معزلٍ عن حياة الناس وشئونهم ؟ أم تكون في معاملة الناس وفي دُنياهم؛ طلباً لمرضات الله، والفوز برحمته ؟

ألا يدرك الناس ماذا يكون في سعيُ الآخرة لأَمْنِ دُنياهم، وما يكون في إيثار ما عند الله من تحقيق أبرِّ الصفات في معاملتهم، وحُسن روابطهم !!

* * *

(١) آل عمران : ١٥- ١٧.

(٢) آل عمران : ١٦، ١٧.

إن منهج الأنبياء - وهو يُحدِّد قِيَمَ الأشياء - لا يطلب من الناس أن يعتزلوا الحياة، بل يجعل الإنسان يطلب الآخرة في عمل دُنياه، فما ضُيِّعَت دُنيا، ولا تُركت أُخرى، بل تنعم دُنيا الناس بما في سعي الآخرة من عمل البِرِّ، وتقديم الخير، وتَطَلُّب الآخرة يجب أن يكون في الدنيا من إخلاص القصد، واستقامة السعي.

فمنهج الأنبياء عدلٌ للإنسان في ذات نفسه، بين مطالب جسده وفضائل روحه.. عدل بينه وبين غيره.. عدل في حق دُنياه، وحقِّ آخرته، وهو يأمر باعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

أخي المسلم:

أرأيت أن منهج الأنبياء - في تحديد قِيَمِ الأشياء - ليس هجرًا لدُنيا؛ لأنها فانية، وإنما هي - بالإصلاح فيها - زاد العمل كأحسن ما يكون..

أرأيت أن منهج الأنبياء لم يأمر الناس بترك الدنيا أو الرهبانية فيها، وإنما أمرهم أن يعمروها بأبَرِّ الصفات وأكرم الخصال؛ لينالوا عند الله أحسنَ الجزاء.

﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

* * *

ثامناً: عدم ابتغاء الأجر أو سؤاله

أخي المسلم:

إنَّ مَن يدعو الناسَ إلى خَيْرٍ وهو يطلبُ أجراً قد يُساءُ فَهْمُهُ، أو يثْقُلُ غُرْمه. أما مَن جاء لِيُنيرَ الطريقَ، وينشُرَ الرحمةَ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق - وهو شريفٌ، عفيفٌ، نقيٌّ، لا تُجْهَلُ سيرتُهُ، ولا يُنْكَرُ خُلُقُهُ - فإنَّ الإعراضَ عنه - حينئذٍ- جهالةٌ، والصَّدَّ عنه سفاهةٌ، وتكذيبَهُ تكذيبٌ للحقِّ، وإيثارٌ للباطل.

لهذا فإن الأنبياءَ جميعاً لا يسألون الناسَ أجراً، ولا يدعون إلاَّ إلى خيرٍ.. يدعوهم إلى ما ينفعُهم في دُنياهم وأُخراهم.

ومَا من نبيٍّ إلا وترى في منهجه إعلانَ قومِه بهذه الحقيقة ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

نسمعُ من نوحٍ عليه السلام وهو يُخاطبُ قومَه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢)

ومن هودٍ عليه السلام وهو يُخاطبُ قومَه: ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الشعراء: ١٠٧- ١٠٩.

(٢) هود: من الآية ٢٩.

(٣) هود: ٥١.

ونسمع محمداً ﷺ يقول لقومه: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (١)

والإنسانيةُ - من بَدْءِ أمرِها إلى نهايته - تحتاجُ إلى مَن يُعلِّمها أنَّ قيمةَ الإنسانِ في صفاتِه، وشرفَهُ في أخلاقه، وكرامتَهُ في صِدْقِ إيمانه، لا في زينته ومتاعه.

الإنسانيةُ في حاجةٍ إلى مَن يُطهرها من دَنَسِ الأهواء.

في حاجةٍ إلى من يُبصِّرها بالعواقب، وهي تريدُ العُلُوَ في الأرض، وتطلبُ التكاثر.

والرسلُ الكرام دُعَاة حقٍّ وعدل، وهُداةٌ إلى صراطٍ مستقيم، والإنسانيةُ - وهي تستجيبُ لدعوتهم - تَسْلَمُ من الفُرْقةِ الضَّالة، والأنانيةِ الجشعة، وتنأى بنفسها عن الظلم والفساد.

الإنسانيةُ - وهي تقتدي بهم - تتنافسُ على المكارم، لا المغَارم، وعلى التراحم، لا التخاصم، وعلى الإيثار، لا الأَثَرَة، وعلى إعلاءِ كلمةِ الله التي يُنْصَفُ بها مظلومٌ، ويُؤخَذُ بها ظالمٌ، وتُحفَظُ بها الحقوقُ، وتُؤدَّى الواجبات.

ومَن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ولا يسألُ الناسَ أجراً، حَرِيٌّ أن يُستجابَ له، وأن يُتَّبَعَ سبيلُه، وأولئك - عند الله - لهم أجرُهم ونورُهم ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

(١) الشورى : من الآية ٢٣.

(٢) الحديد : ١٢.

أخي المسلم: إن القرآن الكريم - وهو يُتلَى عليك - بلاغٌ من الله إليك، وفي القرآن بيانٌ لمنهج الأنبياء في الدَّعْوَةِ إلى الله، فاستمْسِك به، واهتد بهُداه؛ فقد كان خُلُقًا لرسول الله ﷺ. وثِقْ فيما دعاك إليه، أو أخبرك به؛ فإنه الحق ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1]

وصاحِبْه مصاحبةَ مَن يرجون رحمةَ الله؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، وتدبَّر ما خاطب الله به نبيَّهَ ﷺ؛ ففيه عِظَة وتبصرة لك.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لخيرِ ما يُحبُّ ويَرضَى.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّمَ وباركَ على سيدنا ومولانا محمدٍ، وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم.

* * *

(١) الإسراء : من الآية ١٠٥.

(٢) الزخرف : ٤٣، ٤٤.